مع طه حسين
في كتابه "الشيخان"
" نقد وتوثيق "

الدكتور
محمد نبيل غنايم
الأستاذ المساعد بقسم
الدعوة والثقافة الإسلامية

هذا البحث نقد علمى لما قدمه « طه حسين » فى كتابه « الشيخان » ومن خلال اثنتين وعشرين فقره . يكشف هذا البحث عما وقع فيه « طه حسين » من مبالغات وتجاوزات وأخطاء تتنافى كلياً أو جزئياً مع ما ثبت فى كتب التاريخ والتراجم وتتجاوز حدود اللياقة مع أصحاب رسول الله . . « صلى الله عليه وسلم » . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن والاه ، ورضى الله تبارك وتعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين ، وعن خلفائه الراشدين ، وعن صاحبيه شيخى الصحابة أبي بكر وعمر ، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين . وبعد

فأبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب غنيان عن التعريف ، وقد كتب في كل منهما كتب مستقلة ، ومؤلفات عدة ، فضلا عما ذخرت به كتب التاريخ والتراجم من أخبارهما .

وطه حسين غني عن التعريف ، فتاريخه ومؤلفاته في شتى المجالات ، وآثاره العلمية والتعليمية ، وجهوده هنا وهناك خير ترجمة له ، وأعظم تعريف به . ولقاؤنا هذا مع طه حسين في كتابه « الشيخان » ليس تعريفا بالشيخين ولا بطه حسين ، كما أنه ليس تعريفاً بالكتاب ولا عرضا له ، وإنما هو قراءة لفكر طه حسين في هذا الكتاب ، وأضواء على ما قدمه فيه عن الشيخين من أفكار ، أو ما أثاره من آراء واجتهادات ، وهي وجهة نظر نبديها ، في دراسة متأنية تنتقد هذه الآراء وتعلق عليها بما تراه من صواب أو خطأ ودقة أو مبالغة مع مقارنة ذلك بما قاله المؤرخون المسلمون السابقون .

وهذا اللقاء مع طه حسين وكتابه « الشيخان » يجيء في عدة فقرات تربو على العشرين ، تتناول كل فقرة منها فكرة أو رأيا أثاره طه حسين نحو أحد الشيخين فتقدم نص ما قاله ثم يجيء التعليق على ذلك موثقا أيضا بما قاله العلماء السابقون والمعاصرون .

والله نسأل ان ينفع بهذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

(١) قيمة الكتاب

ليس في كتاب « الشيخان » شيء جديد ، أو إضافة علمية ، وكل ما ورد في الكتاب من مواقف وأفكار مسبوق إليه في كتب التاريخ والتراجم ومتناول لدى الباحثين المسلمين وغير المسلمين .

وقد أعلن ذلك طه حسين في مقدمة كتابه فقال : « هذا حديث موجز عن الشيخين : أبي بكر وعمر رحمهما الله وما أرى أنه سيكون فيه جديد لم أسبق إليه ، فما أكثر ما كتب القدماء والمحدثون عنهما : وما أكثر ما كتب المستشرقون عنهما أيضا . . . إلى أن يقول : ولو أني أطعت ما أعرف من ذلك لما أخذت في إملاء هذا الحديث الذي يوشك أن يكون معاداً . . . .[١]» ومع ذلك فمن الحق أن نقول إن في الكتاب لمحات طيبة كتلك المقارنة بين ما قام به عمر بن الخطاب من أساليب الرعاية الاجتماعية والتي سبق بها جميع النظم العالمية حتى وقتنا الحاضر ، وسياسة عمر في تقسيم الأموال التي أفاءها الله تعالى على المسلمين حتى عمت جميع الناس صغاراً وكباراً حتى المواليد والذميين[٢].

(٢) التشكيك في روايات المؤرخين

يميل طه حسين في كتابته إلى التشكيك فيما كتبه المؤرخون سواء عن أبي بكر وعمر أو عن غيرهما ، وذلك أسلوب خطير يؤدى إلى فقد الثقة في تراثنا العربي والإسلامي ، وذلك لأن

---

(١) الشيخان ص ٥ .

(٢) الشيخان ص ١٦٨ ـ ١٧٤ .

كل تراثنا قام في أوله على الرواية ولم يعرف التدوين إلا قليلا ، ثم تكاثر وتعاظم في القرن الثاني الهجري فإذا أخذنا بمبدأ التشكيك في الرواة والمؤرخين وقعنا في خطر عظيم ، قد يكون من المناسب أن نشير إلى مواقف معينة ثبت ضعفها ، وقد فعل ذلك علماء الرجال « الجرح والتعديل[١] » ولم يسبقوا إلى ذلك ، أما أن يكون التشكيك عاما في كل ما كتب ، فهذا هو الخطر الجسيم ، وهذا الذي فعله طه حسين وحكم به على كل من كتب عن أبي بكر وعمر قديماً وحديثاً ، ولو أخذنا برأيه لفقدنا كل شيء ، ونحن نتساءل : إذا كان هذا رأى طه حسين فيما كتب عن الشيخين فمن أين جاء بما كتب عنهما ؟

إن التعميم بهذا الشكل الذي قاله ، والتشكيك في كل ما كتب عنهما شيء غير مقبول وإليك جزءا مما قال :

يقول طه حسين : « وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث ، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ومن تاريخ العصر القصير الذي وليا فيه أمور المسلمين أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التي كانت في أيامهما ، والتي شقت للإنسانية طريقاً إلى حياة جديدة كل الجدة[٢] » ثم يقول « وقدماء المؤرخين من العرب لم يعرفوا من أمر هذه الأحداث الكبرى إلا ما تناقله الرواة من العرب والموالى ، فهم إنما عرفوا تاريخ هذه الأحداث من طريق المنتصرين وحدهم بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم ، وإنما نقلت إليهم أنباؤه نقلا أقل ما يمكن أن يوصف به أنه لم يكن دقيقاً »[٣].

ان ذلك التشكيك الذي يطرحه طه حسين يبدو وكأنه قاصر على ما تناقله المؤرخون من الأحداث التي جرت في عهدهما وما عساه أن يكون قد وقع فيها من زيادة أو نقصان ، وليس كذلك بل إنه يتجاوزهما إلى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وإلى أقوال الصحابة والتابعين وإلى رواية السنة النبوية بل وإلى القرآن الكريم نفسه وقد وقع في هذا فعلا في كتابه « في

---

(١) انظر مثلا : الجرح والتعديل لابن أبي حاتم أو المغنى في الضعفاء للذهبي أو لسان الميزان لابن حجر أو غير ذلك .

(٢) الشيخان ص ٦ .

(٣) الشيخان ص ٨ .

الأدب الجاهلي »[1] وذلك كما قلنا من قبل أمر خطير ينسف التراث الإسلامي كله ويفقد الثقة فيه ، ولكن أنى لطه حسين وعشرات من أمثاله أن يفعلوا ذلك والله عز وجل يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2].

إن طه حسين يناقض نفسه حين يشكك في الرواة ومروياتهم ثم يعتمد على هؤلاء الرواه ومروياتهم فيما يقدم من معلومات في هذا الكتاب الذي بين أيدينا « ويقول الرواة : إن عمر قال عن أبي بكر : إنه أتعب من بعده[3]» ويتكرر ذلك كثيرا في كتابه .

(٣) إيمـان العــرب وإســلامهم

يعلن طه حسين أن العرب عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لم يكونوا مؤمنين ولكن كانوا مسلمين ، ويستدل على ذلك يقول الله تعالى « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم[4] من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم[5]» ويقول : « وكل شيء يدل على أن الله عز وجل قد اختار نبيه لجواره وما زال الأعراب مسلمين لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد ..... إلى أن يقول : فأعلنوا إذعانهم لهذا الدين الجديد طائعين أو كارهين[6]» .

ولو أن طه حسين قال : إن بعض الناس كان كذلك لقبلنا ذلك ولكنه عمم وحكم على كل الناس بذلك وهذا خطأ من عدة وجوه :

أولا : لأن معظم أهل الجزيرة إن لم يكن كلهم قد دخلوا في دين الله أفواجا منذ الفتح (مكة) كما أخبر الله عز وجل في قوله « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في

---

(١) وهو التعديل لكتابه « في الشعر الجاهلي » الذي أحدث ضجة كبرى في أوساط العالم الإسلامي لما فيه من الجرأة على القرآن الكريم وما يخبربه [انظر الكتابين] وكتاب : ابن سلام وطبقات الشعراء للدكتور منير سلطان ص ٢٦٣ ـ ٢٧٩ .

(٢) الحجر ٩ .

(٣) الشيخان ص ١٠ .

(٤) ينقصكم .

(٥) الحجرات ١٤ .

(٦) الشيخان ص ١١ و ١٢ .

دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا»[١].

ثانياً : أن الوفود من سائر أرجاء الجزيرة العربية قدمت على النبى صلى الله عليه وسلم طوعا ـ لا كرها ـ تبايعه على الإسلام في السنة التاسعة من الهجرة فسمى ذلك العام عام الوفود « قال ابن اسحاق : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه[٢]. ولم يكن أحد قد ذهب إليهم أو أرغمهم إنما قدموا طائعين وبالله ورسوله مؤمنين لا كارهين .

ثالثاً : أن الله تعالى قال « ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » ودين الله تعالى هو الإسلام بمعناه الشامل الذي يقوم على الإيمان القلبي والانقياد الظاهري فلو كان الناس على أحدهما فقط لما قال ذلك ، قال ابن كثير : « والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولا واحدا فإن أحياء العرب كانت تتلوم ـ أي تنتظر ـ بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة »[٣].

رابعاً : كيف يقول إنهم دخلوا وبايعوا طوعا أو كرها والله عز وجل يقول « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى »[٤].

خامساً : أن الآية التي استشهد بها لما قال ليس معناها عدم الإيمان ومجرد الإسلام الظاهري والاستسلام ولكن معناها أن الإيمان لم يتمكن في قلوبهم بعد ولذلك قال « لما » ولم يقل « لم » لأن « لما » تفيد إمكان الوقوع وقربه وقد كان لهم عذرهم في ذلك لأنهم دخلوا حديثا في الإسلام فأدبهم الله تعالى بهذه الآية الكريمة التي تقرر حقيقة واقعهم التي ستتغير قريبا لا كما أراد طه حسين . يقول ابن كثير : فهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاما اعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك . . . ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا »[٥].

---

(١) سورة النصر .
(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٤١ .
(٣) مختصر ابن كثير حـ ٣ ص ٦٨٨ .
(٤) البقرة ٢٥٦ .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير حـ ٣ ص ٣٦٩ .

سادساً : أن ما ذكره يتعارض مع ما أخبر الله تعالى به في سورة المائدة في حجة الوداع « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[1].

(٤) تكفير أهل الجزيرة وردتهم

ويبالغ طه حسين حين ينسب الكفر إلى أهل الجزيرة ويتحدث عن ارتداد معظمهم حتى ليظن القارىء أن الناس جميعاً قد انقلبوا على أعقابهم وكأنهم لم يؤمنوا في يوم من الأيام ، فمنهم من أعلن ذلك قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من أعلن ذلك بعد وفاته مباشرة إلى أن قال : « وكذلك عادت الأرض كافرة بعد إسلامها واشتعلت فيها نار ما أسرع ما انتشر لهبها حتى شمل جزيرة العرب كلها وحصر الإسلام في المدينة ومكة والطائف[2].

فانظر إلى هذه المبالغة الواضحة واستخدام الألفاظ العامة : الأرض ، شمل جزيرة العرب - كلها - حصر الإسلام .... و ....

ولم يكن الأمر كذلك :

نعم كانت ردة وكان مرتدون ، ولكنهم لم يكونوا الكثرة بل كانوا القلة ولم يحصر الإسلام في مكة والمدينة والطائف ولكنه كان موجودا وقويا في كل مكان بدليل انتصاره في جولات محدودة على أعدائه والخارجين عليه وعودة الأمور سريعة إلى ما كانت عليه قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدث في اليمن مع الأسود العنسى[3].

ونستطيع أن نقسم الناس حينئذ إلى فئات :

١ - الثابتون على الإسلام وهم معظم أهل الجزيرة في العواصم الكبرى المدينة ومكة والطائف وما بينها من القبائل والقرى .

---

(١) المائدة ٣ .

(٢) الشيخان ص ١٤ .

(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير حـ ٦ ص ٣١٠ .

٢ ـ مانعو الزكاة : وهم مسلمون حقا ولكنهم تأولوا أن الزكاة كانت تدفع للنبى صلى الله عليه وسلم فلماذا تدفع إلى أبي بكر ؟

٣ ـ المرتدون الذين بايعوا مدعى النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب وطلحة الأسدي والأسود العنسي وسجاح بنت الحارث وهؤلاء أقلهم . وقد كان لهؤلاء وأولئك عذرهم فقد دخلوا في الإسلام متأخرين ولم يفهموه حق الفهم فكان ما كان ، وكان منهم من اكره على ذلك الارتداد .

وفي هذا يقول الدكتور محمد حسين هيكل ما ملخصه أن أهل مكة والمدينة والطائف ثبتوا على الإسلام وثبتت كذلك القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف ثبتت مزينة وغفار وجهينة وبلى وأشجع وأسلم وخزاعة ، أما سائر العرب فاضطرب أمرهم فارتد منهم من كان عهدهم بالاسلام قريبا وتبلبلت عقائد سائرهم ثم كان خيرهم من بقى على الإسلام ولم يرض مع ذلك عن بقاء السلطان لأهل المدينة[١] . . . » .

وربما كان لطه حسين العذر في ذلك لأنه تابع بعض المؤرخين في ذلك فهذا ابن الأثير يقول في هذا الشأن « وأما أخبار الردة فإنه لما مات النبى صلى الله عليه وسلم وسير أبو بكر جيش أسامة ارتدت العرب وتضرمت الأرض نارا وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا إلى أن قال : وقدمت كتب أمراء النبى صلى الله عليه وسلم من كل مكان بانتقاض العرب عامة أو خاصة وتسلطهم على المسلمين[٢] . ولكن إذا فهمنا كلمة « العرب » على أنهم الأعراب[٣] وأهل البادية وليسوا سكان المدن والقرى والحواضر لعلمنا أنه كما أشرنا من قبل كان في الجزيرة مسلمون ومرتدون ، ولم يكونوا كلهم مرتدين . وهذا ما قاله ابن كثير وأوضحه بقوله « لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت **أحياء كثيرة من الأعراب**، ونجم النفاق بالمدينة . . . إلى أن قال : وجعلت وفود العرب تقدم المدينة يقرون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة ، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصديق وذكر أن منهم من احتج

---

(١) الصديق أبو بكر « محمد حسين هيكل » اختصار فرج ندا ص ٣٤ .

(٢) الكامل ـ ابن الأثير حـ ٢ ص ٢٣١ .

(٣) وفي اللغة : تعرب : صار اعرابيا وأقام بالبادية انظر : المعجم الوسيط حـ ٢ ص ٥٩١ .

بقوله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم »[1] قالوا فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم ثم بعد ذلك يزكون . . »[2].

اذن فهذا فريق من الناس لم يكفر ولم يرتد بل تأول في منع الزكاة وكان في حاجة إلى من يعلمه أحكام الدين لقرب عهده فيه ويوضح له - كما فعل أبو بكر - أنه لا فرق بين الصلاة والزكاة ومن هنا نستطيع ان نفهم المبالغة التي وقع فيها طه حسين بتعميم الردة على سائر الأرض والعرب وهو تعميم غير صحيح .

(٥) تأمير أسامة على جيش الشام

ويرى طه حسين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أسامة بن زيد على جيش للشام وعرب شمال الجزيرة لأن أسامة كان له ثأر عندهم لأنهم قتلوا أباه زيد بن حارثة فى مؤتة يقول طه حسين « لم يكتف النبى صلى الله عليه وسلم بمؤتة وتبوك وإنما جهز قبل وفاته جيشا لغزو هؤلاء العرب وأمر على هذا الجيش أسامة بن زيد بن حارثة وكان لأسامة ثأر عند هؤلاء العرب الذين قتلوا أباه يوم مؤتة ، وعسى أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد لاحظ هذا الثأر حين أمر أسامة على حداثة سنه »[3].

والذي نعلمه وتذكره كتب التاريخ أن تأمير النبي صلى الله عليه وسلم لأسامة إنما كان لمعنيين أحدهما التنويه بالمساواة في الإسلام وعدم التفريق بين الأحرار والموالى حتى في الإمارة لأن زيد بن حارثة كما نعلم كان من الموالي فإسناد الإمارة له ولابنه يشير إلى عظمة الإسلام في باب المساواة بين الناس أحرارا وموالي والمعنى الثاني : التنويه بدور الشباب ومسئولياته في أمر الدعوة والجهاد ، ويتضح هذان المعنيان من تعليق النبي صلى الله عليه وسلم على اعتراض بعض الناس على إمارة أسامة ، فقد تكلم المنافقون في إمارته وقالوا : أمر غلاماً على جلة

(١) التوبة ١٠٣ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٦ ص ٣١١ .
(٣) الشيخان ص ١٥ .

المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل وإنه لخليق للإمارة وكان أبوه خليقا لها[(١)] » فالإمارة إذن لأسامة ولأبيه من قبله لأن كلا منهما كان جديرا لها ، وليست المسألة مسألة ثأر لأبيه وإلا لكان على النبى صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك مع الجميع لأنه ما من صحابي إلا وله ثأر عند أعداء الإسلام والمسلمين ، وقد استشهد كما نعلم في مؤته غيرزيد بن حارثة من الأمراء : عبد الله بن رواحة ، وجعفر بن أبي طالب « الطيار » رضى الله عنهم أجمعين ومن الصحابة كثيرون .

وهذا الذي أشرنا إليه عبر الدكتور هيكل عنه في كتابه عن الصديق بقوله « كان أسامة حدثا لما يبلغ العشرين ، وإنما ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم على الجيش ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه بمؤته ، وما يعود الشباب الاضطلاع بجسام التبعات . . . . إلى أن يقول : وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين في طريقهم إلى أحد وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه ثم إنه أبلى من بعد في حنين أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد »[(٢)] .

تلك إذا مبررات تولية أسامة وهي معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إنه لخليق بالإمارة وإن كان أبوه لخليقا لها » وليس معنى الثأر الجاهلي العصبي القائم على الهوى كما أشار طه حسين ولو كان الأمر كذلك لكان أبو بكر قد غير الإمارة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم خصوصا وأن بعض الصحابة قد تكلم فيها وطالب بها عمر ، ولكن أبا بكر كان أقوى منهم وأبقى على ما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم به وقال كلمته المشهورة في ذلك : « لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثكلتك أمك يا عمر استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه »[(٣)] والجيش الذي قاده أسامة ومن قبله أبوه لم يكن لقتال العرب أصلا وإنما كان لقتال الرومان ومن يواليهم من القبائل العربية في شمال الجزيرة بعد دعوتهم إلى الإسلام .

---

(١) الكامل حـ ٢ ص ٢١٥ ، والبداية والنهاية حـ ٥ ص ٢٢٢ وخليق : أي جدير بها .
(٢) الصديق أبو بكر : هيكل ، اختصار فرج ندا ص ٤٤ .
(٣) السابق ص ٤٤ .

(٦) في صلح الحديبية

ويذكر طه حسين أن الرواة تحدثوا بأن أبا بكر كان الرجل الوحيد الذي اطمأنت نفسه لصلح النبي صلى الله عليه وسلم مع قريش على الهدنة يوم الحديبية ، وقد اضطرب الناس لهذا الصلح وضاقوا به أول أمرهم[١] .

وليس الأمر كذلك فلم يذكر الرواة شيئا من تفرد أبي بكر الصديق بشيء في هذا الموقف ، والذي ذكروه شيئا آخر إليك طرفا منه :

فقد كتب على بن أبي طالب المعاهدة للنبي صلى الله عليه وسلم وشهد على الصلح جماعة من المسلمين فيهم أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ، فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من قضيته قال : قوموا فانحروا ثم احلقوا فما قام أحد حتى قال ذلك مرارا فلما لم يقم أحد منهم دخل على أم سلمة فذكر لها ذلك فقالت : يا نبى الله اخرج ولا تكلم أحدا منهم حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك ففعل فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا للازدحام[٢] .

فليس في الروايات أن أبابكر قد تفرد بشيء والذي فيها أن عمر بن الخطاب اعترض على الصلح وتساءل عن وجه الحق وراجع أبابكر في ذلك فهدأه وأفهمه أن رسول الله على الحق . فمن أين جاء بهذا التفرد ، لعله الحب لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وهو أهل لذلك ولكن لا نقول عنه وعن الرواة ما لم يقع ، ألم يكن علي يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ؟ ألم يكن المغيرة بن شعبة واقفا على رأس النبي صلى الله عليه وسلم بسيفه حارسا له ؟

(٧) في بيعة أبى بكر

أشار طه حسين إلى أن بيعة أبي بكر بالخلافة كانت بإجماع الصحابة لم يتخلف عنها أحد لا علي ولا غيره[٣].

---

(١) الشيخان ص ٢١ .

(٢) انظر في ذلك : الكامل حـ ٢ ص ١٣٨/١٣٩ والبداية والنهاية حـ ٤ ص ١٦٩ . وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٥٨ ومختصر تفسير ابن حـ٣ ص ٣٥١ .

(٣) الشيخان ص ٥٤

وقد أشار إلى ذلك أيضا هيكل فقال : والثابت أنه لم يناهضه أحد ولم ينضم إلى من تخلف عن بيعته أحد ، وقال : فبايع الناس جميعا بيعة العامة بعد بيعة الخاصة بالسقيفة »[1].

والصحيح الذي رجحه كبار المؤرخين أن علي بن أبي طالب وآخرين قد تأخروا في البيعة ستة أشهر حتى ماتت فاطمة الزهراء ، يقول ابن الأثير : « لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال : ما هذا ؟ فقالوا منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر : منا الأمراء ومنكم الوزراء ، ثم قال أبو بكر : قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة ، فقال عمر : أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبي صلى الله عليه وسلم فبايعه عمر وبايعه الناس ، فقالت الانصار أو بعض الأنصار : لا نبايع إلا عليا قال : وتخلف علي ، وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة ، وقال الزبير لا أغمد سيفا حتى يبايع علي ، فقال عمر : خذوا سيفه واضربوا به الحجر ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة ، وقيل : لما سمع على بيعة أبى بكر خرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا[2] حتى بايعه ثم استدعى إزاره ورداءه فتجلله [3] . **والصحيح** أن أمير المؤمنين ما بايع إلا بعد ستة أشهر والله أعلم . وقيل : لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان ؟ علي والعباس ؟ ما بال هذا الأمر في أقل حى من قريش ؟ ثم قال لعلي : أبسط يدك أبايعك فو الله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى عليّ رضى الله عنه عليه فتمثل بشعر المتلمس :

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يبكى له أحد

فزجره علي وقال : والله إنك ما أردت بهذا الا الفتنة ، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شرا ، لا حاجة لنا في نصيحتك »[4] . إذا فنحن أمام عدة روايات بالنسبة لبيعة علي لأبي

(١) الصديق / هيكل ص ٣٠ .
(٢) عجلا : سريعا .
(٣) تجلله : ارتداه ولبسه .
(٤) الكامل جـ ٢ ص ٢٢٠ .

بكر منها ما تقول انه بايع ومنها ما تقول إنه تخلف وصحح ابن الأثير أنه تخلف ستة أشهر كما مضى .

وقد ذكر ابن كثير مثل هذه الروايات بتفصيل أكثر ورجح أن يكون علي قد بايع في اليوم الأول أو الثاني ثم احتجب فترة ترضية لفاطمة التي غضبت من أبي بكر لما منعها من الميراث فلما ماتت بعد أبيها بستة أشهر جدد علي البيعة فقد قال ابن كثير بعد ذكر حديث عن أبي سعيد الخدري « وهذا اسناد صحيح .. وفيه فائدة جليلة وهي مبايعة علي بن أبي طالب أما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة وهذا حق فإن على بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ولم ينقطع في صلاة من الصلاة خلفه . . . ولكن لما حصل من فاطمة رضى الله عنها عتب على الصديق بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعلم بما أخبرها به الصديق رضى الله عنه أنه قال : « لا نورث ما تركناه فهو صدقة » فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح فسألته أن ينظر علي في صدقة الأرض التي بخيبر وفدك فلم يجبها إلى ذلك لأنه رأى أن حقا عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق البار الراشد التابع للحق رضى الله عنه فحصل لها ـ وهي امرأة من البشر ليست براجية العصمة ـ عتب وغضب ولم تكلم الصديق حتى ماتت واحتاج على أن يراعى خاطرها بعض الشيء فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم رأى على أن يجدد البيعة مع أبى بكر رضى الله عنه مع ما تقدم له من البيعة قبل دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

وسواء كانت هذه البيعة جديدة أو تجديد البيعة سابقة فالرواة غير متفقين على الاجماع كما ذكر طه حسين .

(٨) كتاب أبى بكر للأمراء في حروب الردة

ويشكك طه حسين في الكتاب الذي كتبه أبو بكر لقواده في حروب الردة وما يحمله ذلك الكتاب من مبادىء ووصايا ، ولا يقدم دليلا واحداً على السبب في تشككه هذا وعدم اطمئنانه مع أن الكتاب صحيح وليس فيه ما يدعو إلى التشكيك ، يقول طه حسين

---

(١) البداية والنهاية حـ ٥ ص ٢٤٩/ ٢٥٠ .

« والمؤرخون يسجلون نص هذا الكتاب ولسنا نطمئن إلى هذا النص كما لا نطمئن إلى نص العهد الذي كتبه أبو بكر لقواده ، وإنما ترجح أن يكون معنى هذا الكتاب ـ إن كان قد كتب ـ للعهد الذي كتبه أبو بكر لقواده »(1).

والكتاب صحيح ورواه ابن كثير وغيره وإليك نصّه : قال سيف بن عمر عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد : لما استراح أسامة وجنده وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية فعقد أحد عشر لواء .... وقد كتب لكل أمير كتاب عهده على حدته ففصل كل أمير بجنده من ذى القصة ورجع الصديق إلى المدينة وقدكتب معهم الصديق كتابا إلى الربذة وهذه نسخته « بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه سلام على من اتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنه محمدا عبده ورسوله نقر بما جاء به ونكفر من أبى ذلك ونجاهده ، أما بعد فإن الله أرسل بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدبر عنه حتى صار إلى الاسلام طوعا أو كرها ثم توفى الله رسوله وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي إنزل فقال « إنك ميت وإنهم ميتون»(2) وقال « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افإن مت فهم الخالدون »(3) وقال للمؤمنين « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين »(4) فمن كان إنما يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان إنما يعبد الله فإن الله حى لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره ، منتقم من عدوه ، وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله فإن كل

---

(1) الشيخان ص ٥٨ .
(2) الزمر ٣٠ .
(3) الانبياء ٣٣ .
(4) آل عمران ١٤٤ .

من لم يهده الله ضال وكل من لم يعنه الله مخذول ، ومن هداه غير الله كان ضالا قال الله تعالى : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجدله وليا مرشدا »[1] ولن يقبل له في الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل لهُ في الآخرة صرف ولا عدل وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله وجهلا بأمره وإجابة للشيطان قال الله تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا »[2] وقال « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير »[3] وإنى بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقبل من أحد إلا الايمان بالله ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عز وجل ، فإن أجاب وأقر وعمل صالحا قبل منه ، وأعانه عليه وإن أبى حاربه عليه حتى يفيء إلى أمر الله ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار وأن يقتلهم كل قتله وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد غير الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابه في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فسلوهم ما عليهم فإن ابو عاجلوهم وإن أقروا حمل منهم على ماينبغى لهم رواه سيف بن عمر عن عبد الله بن سعيد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك[4] .

(٩) موقف الصحابة من حروب الردة

ويشكك طه حسين في مراجعة الصحابة وعمر بن الخطاب بصفة خاصة لأبى بكر في حروب المرتدين ويرى أن ما ذكره الرواة في هذا المقام ضعيف فلا يعقل أن يناقش الصحابة في مواجهة هذا الخطر أو أن يجبنوا عن مواجهته خوفا أو أن يكونوا لا يعلمون الفرق بين الصلاة والزكاة حتى يعلمهم أبو بكر ، ويرى أن في التسليم بذلك إساءة لهؤلاء الشيوخ من الصحابة . يقول « ولكن الرواة يزعمون أن بعض وجوه المسلمين راجعوا

---

(١) الكهف ١٧ .

(٢) الكهف ٥٠ .

(٣) فاطر ٦ .

(٤) البداية و النهاية حـ ٦ ص ٣١٦ والصديق / هيكل ص ٥٧ .

أبا بكر في حرب المرتدين وقال له قائلهم وهو عمر رحمه الله : كيف تقاتلهم وهم يقولون لا إله إلا الله . . . ويزعم الرواة أن عمر قد شرح الله صدره لقتال المرتدين حين رأى أن الله قد شرح لهذا القتال صدر أبي بكر ولست أقبل هذه القصة بحال . . . . والذين يروون هذه الرواية يسيئون إلى أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله حين يصورونهم من جهة خائفين مشفقين أن يتخطفهم العرب . . . . »[1] والواقع أن طه حسين في هذه المسألة أخذ الأمر بصورة معكوسة فالصحابة لم يراجعوا أبا بكر خوفا من المرتدين - كما يقول - وأنما خوفا عليهم ورغبة في إتاحة الفرصة لهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم وراجعوه خوفا من الله أن ينالوا من دم إنسان يوحد الله ، وكانوا يفهمون مثل أبي بكر أنه لا فرق بين الصلاة والزكاة ولكن هل يجب القتال في ذلك . وهذا ما يتضح من روايات المؤرخين وهي روايات صحيحة ومتفق عليها :

يقول ابن كثير : « وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون ، فامتنع الصديق من ذلك وأباه ، وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه عن ابى هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر : علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ فقال أبو بكر : والله لو منعوني عناقا وفي رواية عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها ، إن الزكاة حق المال والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة قال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق »[2].

هذه هى رواية المراجعة ليس فيها إلا الحرص على القوم والخوف عليهم وليس الخوف منهم ، ومراجعة عمر كانت بمثابة استفهام إنكاري في قتال قوم يوحدون الله فلما بين أبو بكر أن منع الزكاة يخل بذلك عرف عمر أن هذا هو الحق ، فكيف حول طه حسين ذلك إلى خوف من المرتدين وفزع من قوتهم وهم الذين حاربوا مع رسول الله صلى الله

---

(١) الشيخان ص ٥٩ ـ ٦١ .

(٢) البداية والنهاية حـ ٦ ص ٣١١ والعناق : الشاة الصغيرة ، والعقال ما تربط به الحيوانات والمقصود الشيء القليل .

عليه وسلم في مواطن كثيرة . وإلى عدم فهم الدين حيث فرقوا بين الصلاة والزكاة ، وهم لم يفرقوا إنما التمسوا العذر لهؤلاء الناس ؟! .

(١٠) لا إكـــراه فـــي الديـــن

ويستخدم طه حسين في عباراته ما يفيد أن المرتدين رجعوا إلى الإسلام طوعا أو كرها ، وأن المسلمين تبعوا المنهزمين حتى فتحوا عليهم حصونهم وأخضعوهم لسلطان الله وهم كارهون . قال ذلك أكثر من مرة[١].

وهذا التعبير غير سليم وينافي آيات القرآن وقواعد الشريعة ففي القرآن يقول الله تعالى « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »[٢] وقواعد الشريعة تذكر أن المرتد يستتاب فإن تاب قبلت توبته وإن لم يتب قتل . وهو حين يتوب إنما يتوب باختياره وحين يصر على موقفه يعرض نفسه للقتل ، فليس في الأمر اكراه من أي جهة ومن عاد من المرتدين إلى الإسلام عاد باختياره طواعية ، وأما من لم يتب فقد اختار الطريق الصعبة وعرض نفسه للقتل .

(١١) تجـــاوز غـــير لائـــق

ويستخدم طه حسين عبارات سيئة في حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فها هو يتحدث عن عكرمة بن أبي جهل رضى الله عنه الذي كان قائدا لأبي بكر في حروب الردة ، وكان أبو بكر قد أرسله إلى مسيلمة وأتبعه شرحبيل بن حسنة ليقويه فعجل عكرمة ليذهب بصوتها وينال شرف الفوز والانتصار على أعداء الله ولكنه أخفق حين واقعهم . فنكبوه فلم يعجب هذا طه حسين وقال عنه : « ثبت بنو حنيفة للمسلمين حتى هزموا عكرمة بن أبي جهل لأنه تعجل ولم ينتظر المدد ، وقد عنفه أبو بكر تعنيفا شديدا ، ولم يزل عكرمة عن نفسه عار هذه الهزيمة إلا حين استشهد في حرب الروم يوم اليرموك[٣].

---

(١) الشيخان ص ٦٣ ـ ٦٤ .
(٢) البقرة : ٢٥٦ .
(٣) الشيخان ص ٦٤ .

وهذا الكلام لا يليق فلا يجوز أن نصف من جاهد وحارب أعداء الله ثم هزم بعار الهزيمة ، ولا يليق أن يسدل الستار على انتصارات عكرمة المتتالية في حرب المرتدين ولا يذكر إلا استشهاده يوم اليرموك ، فعكرمة رضى الله عنه منذ البداية كتب إلى أبي بكر بالخبر ، فكتب إليه أبو بكر لا أرينك ولا تراني لا ترجعن فتوهن الناس ، امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرؤن الناس حتى تلقى مهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت[٢].

فهل يكون بعد عار الهزيمة - كما يقول طه حسين - التكليف بهذه المهام الكبرى في الجزيرة العربية من شرقها إلى جنوبها إلى جنوبها الغربي ، وهل يمكن أن يقال مثل ذلك على مجاهدي أحد أو مؤتة ؟

إنه أسلوب غير لائق وتجاوز غير مقبول . فقد شارك عكرمة في حرب المرتدين في عمان وانتصر عليهم ثم سار إلى المرتدين في مهرة وانتصر عليهم وأقام بينهم حتى اجتمع الناس على الذي يحب وبايعوا على الإسلام وكذلك في اليمن وحضرموت وامتدت أعماله وجهوده في خدمة الإسلام حتى أبلى بلاء حسنا واستشهد في اليرموك وفي بدنه بضع وسبعون إصابة .

(١٢) قصاص لا تمثيل

ويقول طه حسين عن أبي بكر وقائده خالد بن الوليد كلاما يتنافى مع ما جاء به القرآن وتأدب به المسلمون ، وذلك حين أشار إلى وصية أبي بكر لقواده « أن يتتبعوا بعد النصر أولئك الذين قتلوا المسلمين ، وأن يقتلوهم ويجعلوهم لغيرهم نكالا » ويقول عن خالد إنه « جعل يتتبع من المغلوبين من كان قد قتل المسلمين أو فتنهم فإذا أخذهم قتلهم أشنع قتله كأن يقذف بهم من أعالى الجبال ، وينكت بعضهم في الآبار ، ويحرق بعضهم بالنار ، وينصب بعضهم هدفا لنبال حتى أخاف الناس وملأ قلوبهم ، وكان في طبع خالد رحمه الله عنف شديد واستعداد للإسراف في القتال »[١].

---

(١) الكامل حـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٢) الشيخان ص ٦٨ - ٦٩ .

والذي نعلمه وسبقت الإشارة إليه أن أبا بكر لم يعط تفويضا أو إذنا بذلك الذي قاله طه حسين على إطلاقه ، وإنما جعل ذلك لمن عصى ، وأصر على الكفر والعناد وحرب المسلمين ، وهذا نص كلام أبي بكر رضي الله عنه في كتابه لأمرائه في حروب الردة « وإني بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرت ألا يقبل من أحد إلا الإيمان بالله ، ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عز وجل فإن أجاب وأقر وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، وإن أبي حاربه حتى يفيء إلى أمر الله ، ثم لا يبقى على أحد قدر عليه منهم ، وأن يحرقهم بالنار وأن يقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد غير الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابه في كل مجمع لكم والداعية الأذان ، فاذا أذن المسلمون فكفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فسلوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا حمل منهم على ما ينبغي لهم »[1].

وفرق بين هذا الذي قاله أبو بكر لقواده وهو الدعوة إلى الله والعودة للاسلام قبل القتال ثم قتال من لم يجب وعاند ولم يقبل ، وبين ما قاله طه حسين من أن أبا بكر أمر قواده وأوصاهم بما ذكر .

وكان أبو بكر قد سار بنفسه إلى الأبرق ثم القصة ليقابل من هاجم المدينة وعسكر حولها من عبس وثعلبة ومرة وكنانة ، ووثب بنو عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين ، فقتلوهم كل قتلة ، وفعل من وراءهم فعلهم فحلف أبو بكر عند ذلك الذي بلغه عما فعلت عبس وذبيان بالمسلمين ، حلف ليقتلن في المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة ، وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة :

ويوم بالأبارق قد شهدنا ... على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهية تسوق ... مع الصديق إذ ترك العتابا

وبهذا ازداد المسلمون قوة وثباتا على دينهم في كل قبيلة وازداد لها المشركون انعكاسا من أمرهم في كل قبيلة »[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٦ ص ٣١٦ .
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير حـ ٢ ص ٢٣٣ .

وأما ما قاله طه حسين عن خالد بن الوليد فقد يظن منه أن خالدا كان يريد الثأر والانتقام ممن ارتد وأخطأ حتى ولو رجع إلى الإسلام أو استسلم ، ومن يتتبع الوقائع بتفاصيلها يجد أن ذلك إنما كان لمن أصر على الحرب والعناد ، وبعد أن عرضت عليه كل الوسائل السلمية فلم يستجب ولم يذعن ، وكان ذلك عندئذ ضروريا ليعتبر بهم من وراءهم من القبائل ، وإليك ما يوضح ذلك :

كان الصديق قد بعث عدى بن حاتم قبل خالد بن الوليد ، وقال له : أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة[1] فيكون دمارهم ، فذهب عدى إلى قومه بنى طىء فأمرهم أن يبايعوا الصديق ، وأن يراجعوا أمر الله ، فقالوا لا نبايع أبا الفضل أبدا يعنون أبا بكر رضى الله عنه ، فقال : والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر ، ولم يزل عدى يفتل لهم في الذروة والغارب[2] حتى لانوا ، وجاء خالد في الجنود ، وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شماس ، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن طليعة[3] فتلقاهما طليحة وأخوه سلمة فيمن معهما ، فلما وجدا ثابتا وعكاشة تبارزوا فقتل عكاشة جبال بن طليحة وقيل : بل كان قتل جبالا قبل ذلك وأخذ ما معه ، وحمل عليه طليحة فقتله وقتل هو وأخوه سلمة ثابت بن أقرم .، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين ، فشق ذلك على المسلمين ، ومال خالد إلى بنى طىء فخرج إليه عدى بن حاتم فقال : انظرني ثلاثة أيام فإنهم قد استنظروني حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم فإنهم يخشون إن تابعوك ان يقتل طليحة من سار إليه منهم ، وهذا أحب إليك من أن يعجلهم إلى النار »[4]. فلما كان بعد ثلاث جاء عدى في خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق فانصافوا إلى جيش خالد ، وقصد خالد بنى جديلة فقال له[5] يا خالد : أجلني أياما حتى آتيهم فلعل الله ان ينقذهم كما أنقذ طيئا[6] فأتاهم عدى فلم يزل بهم حتى تابعوه فجاء خالدا بإسلامهم ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب ، فكان

---

(١) طليحة الأسدي ، وكان قد ارتد وادعى النبوة .

(٢) يسترضيهم ويستميل جانبهم كما يفعل الفارس لفرسه .

(٣) طليعة أي استطلاعا للأمر قبل قدوم الجيش ليروا ما عليه القوم .

(٤) وهكذا كان طليحة هو البادىء يفتل الطلائع ، ثم ها هو خالد يأخذ برأى عدى وينتظر ثلاثة أيام .

(٥) القائل هو عدى بن حاتم .

(٦) فأجلهم خالد .

عدى خير مولود وأعظمه بركة على قومه رضى الله عنهم . قالوا ثم سار خالد حتى نزل جأجأ وسلمى[1]، وعبّى جيشه هنالك والتقى مع طليحة الأسدي بمكان يقال له بزاخة ، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة ، وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم وانضاف إليهم ، وقد حضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه بنى فزارة ، وقد انهزم فريق المرتدين وفر طليحة إلى الشام وقتل من قومه طائفة ، فلما أوقع الله بطليحة . وفزارة ما اوقع قالت بنو عامر وسليم وهوازن : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا ، وأسر خالد بن الوليد عيينة بن حصن ، وبعث به إلى المدينة مجموعة يداه إلى عنقه فدخل المدينة وهو كذلك ، فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم ويقولون : أي عدو الله ارتددت عن الإسلام فيقول : والله ما كنت آمنت قط ، فلما وقف بين يدى الصديق استتابه وحقن دمه[2] ثم حسن إسلامه بعد ذلك ، وكذلك مَنَّ على قرة بن هبيرة وكان أحد الأمراء مع طليحة ، وقد كتب أبو بكر الصديق إلى خالد ـ حين جاءه أنه كسر طليحة ـ ومن كان في صفه وقام بنصره فكتب إليه : ليزدك ما أنعم الله به خيرا واتق الله في أمرك فإن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون[3] . جد في أمرك ولا تلن ، ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين[4] إلا نكلت به ، ومن أخذت ممن حاد الله أو ضاده ممن يرى أن في ذلك صلاحا فاقتله[5] وأقام خالد ببزاخة شهرا يصعد فيها ويصوب ، ويرجع إليها في طلب الذين وصاه بسببهم الصديق فجعل يتردد في طلب هؤلاء شهرا[6] يأخذ بثأر من قتلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا فمنهم من حرقه بالنار ، ومنهم من رضخه[7] بالحجارة ، ومنهم من رمى به من شواهق الجبال ، كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب »[8].

---

(١) موقعان .

(٢) حفظه وصانه من القتل والاهدار ، وهذا صنيع أبي بكر مع قائد من قواد المرتدين .

(٣) هذا هو الأصل والأساس . والآية آخر سورة النحل .

(٤) هذا هو السبب والشرط فيما بعده .

(٥) بسبب العناد والاصرار على الكفر .

(٦) لأنهم كانوا قد فروا وتفرقوا دون أن يسلموا .

(٧) رضخه بالحجارة : رماه بها حتى قتل .

(٨) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣١٧ ـ ٣١٩ .

وعلى هذا لم يكن خالد بن الوليد مسرفا أو معتديا أو منتقما ، وإنما كان كما رأينا وبتوجيه من أبي بكر الصديق ـ متأنيا يبعث الطلائع لمعرفة أحوال القوم ويمهلهم في العودة إلى الإسلام والتوبة كما فعل مع عدي بن حاتم ، وقومه وغيرهم ولم يحارب إلا من اعتدي منهم وأصر على الكفر والبقاء على الردة والقتال ، وعند ذلك كان يفعل به ما رأينا : أولا : لأنه مرتد وقد عرضت عليه التوبة فلم يتب فجزاؤه القتل ، وثانيا : لأنه مفسد في الأرض ومحارب وقد بين الله تعالى جزاء المحاربة في قوله « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم »[1].

وثالثا : للثأر والقصاص للمسلمين الذين قتلوا على أيدى المرتدين ، وفي مقابل ذلك أو إلى جوار ذلك وجدنا خالدا يقبل توبة التائبين ، ووجدناه يضمه إلى صفوف جيشه ، ووجدنا أبا بكر يعفو عن طليحة الذي تاب ورجع للإسلام وحسن إسلامه ، بل وجدناه بعد ذلك يقاتل في جيش خالد بن الوليد في فتح الشام ، كما عفا أيضا عن عيينة بن حصن وحقن دمه وهكذا ، وهذا العفو كما قال تعالى « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم »[2].

(١٣) اجتهـاد لا إسـراف

ومرة أخرى يصف طه حسين خالد بن الوليد بالعنف والإسراف في القتل وذلك حين قتل مالك بن نويرة ومن معه ، وحين أكثر القتل في أهل فارس ، ويستخدم هذا الوصف ويكرره أكثر من مرة[3]. فمن ذلك قوله[4]: « وقد يكون الرواة قد أسرفوا في المبالغة ، ولكن المحقق أن خالدا أمعن في القتل حتى ضاق بذلك القعقاع وأصحابه فصرفوه عن ذلك باجراء الماء وهذه صورة اخرى من صور العنف في أخلاق خالد[5].

---

(١) المائدة : ٣٣ .
(٢) المائدة ٣٤ .
(٣) الشيخان ص ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٩ .
(٤) هذا في فتح فارس .
(٥) الشيخان ص ٧٩ .

والواقع والثابت آن خالدا لم يسرف في شيء ، ولم يمعن في القتل ، فقد رأينا بعض مواقفه في حروب المرتدين حيث كان ينتظر ويمهل بالأيام ، كما فعل مع بنى طيء ، وغيرهم برأى عدى بن حاتم ، وأما قتل مالك بن نويرة فقد تأول فيه واجتهد وأخطأ ، ولذلك عفا عنه أبو بكر وقبل منه ذلك وقال خالد في ذلك « إذا أراد الله أمرا أصابه » مما يدل على أنه كان مغلوبا في ذلك بالقدر والارادة الإلهية .

وأما عن كثرة القتل في فارس فإنما كان في سبيل الله الذي أمر بذلك في اكثر من آية يقول تعالى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق[1] وقوله « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض »[2]. والإثخان هو كثرة القتل ليكون درسا لأعداء الله ومن بعدهم . والمناسبة التى ذكر فيها طه حسين تلك الصفة قال فيها ابن كثير : ثم كانت وقعة أليس في صفر وفيها نفرت الأعاجم عن الطعام وقاموا إلى السلاح فاقتتلوا قتالا شديدا جديدا والمشركون يرقبون قدوم بهمن مددا من جهة الملك إليهم ، فهم في قوة وشدة وكلب في القتال ، وصبر المسلمون صبرا بليغا ، وقال خالد : اللهم لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا استبقى منهم أحدا أقدر عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم ، ثم إن الله عز وجل منح المسلمين أكتافهم فنادى منادى خالد : الأسر ، الأسر ، لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر ، فأقبلت الخيول بهم أفواجا يساقون سوقا وقد وكل بهم رجالا يضربون أعناقهم في النهر ، ففعل بهم ذلك يوما ، ويطلبهم في الغد ومن بعد الغد وكلما حضر منهم أحد ضربت عنقه في النهر ، وقد صرف ماء النهر إلى موضع آخر ، فقال له بعض الأمراء : إن النهر لا يجرى بدمائهم حتى ترسل الماء على الدم فيجرى معه فتبر بيمينك ، فأرسله فسال النهر دما عبيطا فلذلك سمى نهر الدم إلى اليوم .

إذن فهذا وفاء لعهد مع الله وبر بيمين حلفها ، وإخلاص لدين الله ودعوته ، وليس عنفا ولا إسرافا ، والله عز وجل هو الذي مكنه من ذلك . ومن هنا أثنى عليه أبو بكر الصديق وقال : يا معشر قريش إن أسدكم قد عدا على الأسد فغلبه على خراذيله ، عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد ، ثم جرت أمور طويلة لخالد في أماكن متعددة يمل سماعها وهو مع

---

(١) محمد : ٤ .
(٢) الأنفال : ٦٧ .

ذلك لا يكل ولا يمل ولا يهن ولا يحزن ، بل كما له في قوة وصرامة وشدة وشهامة ، ومثل هذا إنما خلقه الله عزا للإسلام وأهله وذلا للكفر وشتات شمله »[1].

فهل بعد هذه الشهادة من أبي بكر الصديق ، وبعد ذلك الوسام الذي تقلده خالد أولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانيا من خليفته أبي بكر يصح أن يقال عن خالد ما قيل من وصفه بالسرف والعنف والعجب والخيلاء ؟!!

(١٤) في اليرمـــــوك

يرجح طه حسين أن يكون توحيد قيادة جيش المسلمين في فتح الشام تم بأمر الخليفة أبي بكر الصديق أو توجيهه ، وذلك حين أمر خالد بن الوليد أن يترك العراق ويتوجه إلى الشام فسار إليها وهناك تولى إمرة الجيش فيقول : « وكان بلوغ خالد جيوش المسلمين بركة عليهم ، فهو قد أشار على أمراء الجيوش أن يوحدوا القيادة وأن يكون كل واحد منهم أميرا على جماعة المسلمين يوما وطلب إليهم أن يجعلوا له أول يوم بعد توحيد القيادة ـ كذلك يقول الرواة وأرجح أنا أن أبا بكر أرسله إلى الشام أميرا على جيوش المسلمين كلها ، وأن أبا بكر هو الذي وحد قيادة الجيوش على أن لا يحرم أمير من الأمراء عمله الذي وعد به »[2].

ولا ندرى من أين جاء طه حسين بهذا الترجيح ، فلا كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد بتوجيهه للشام يدل على ذلك فقد كان ذلك لإمداد جيش المسلمين بالشام ؛ ولا خطاب خالد مع أمراء الجيش يشير إلى ذلك إنما كان الأمر اقتراحا من خالد رأى فيه جانب المصلحة وأقام الدليل عليه ، وبين أن الخليفة لن يعترض فوافقه الأمراء وأيدوه وولوه أميرا عليهم ، بل كانت الدلائل تشير إلى أن أبا بكر لا يريد إمرة خالد لأنه حج من ورائه ، يقول ابن الأثير : لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر فكتب إلى خالد بن الوليد يأمر بالمسير إليهم والحث وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني ، ولا يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المثنى مثله ، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق »[3] فهل في ذلك شيء من أبي بكر في الإمارة ؟

---

(١) البداية والنهاية حـ ٩ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

(٢) الشيخان ص ٩٥ .

(٣) الكامل حـ ٢ ص ٢٧٩ .

ويؤكد ابن جرير الطبرى ان أبا بكر كان عاتبا على خالد حجه من وراء الجند وبدون اذنه ، وما فيه من العجب والثقة ، فأرسل إليه معاتبا ووجهه إلى الشام ، وأعتقد أن العتاب واللوم يقتضى خلع الإمارة لو كانت موجودة وليس إسنادها وتوحيد الصفوف عليها . يقول - أي الطبري - : كان في كتاب أبى بكر إلى خالد : سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا[1]، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولم ينزع الجشى[2] من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء »[3].

وتمضى مع خالد إلى الشام حين يصل أمراءها من المسلمين ويلتقى الجمعان لنرى هل كان هناك ما يشير إلى تأمير خالد من قبل أبى بكر أم أن ذلك كان اقتراحا من خالد وموافقة الأمراء ؟

يقول ابن الأثير : تكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا سبعة وعشرين ألفا وقدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين الفا سوى عكرمة فانه كان ردءا[4] لهم . . . وقيل كانوا أربعين ألفا سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبى جهل وكان قتال المسلمين للروم على تساند[5] : كل أمير على أصحابه لا يجمعهم أحد حتى قدم خالد بن الوليد من العراق . . . . فلما أحس المسلمون بخروج الروم أرادوا أن يخرجوا لهم متساندين ، فسار فيهم خالد بن الوليد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وانتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه رأى واليكم ومحبته ، قالوا هات فما الرأى ؟

---

(١) أصابوا وأصيبوا وحزنوا وأحزنوا .

(٢) لا يفزعهم ولا يحزنهم مثلك والناس هم الروم .

(٣) هامش الكامل حـ ٢ ص ٢٧٩ .

(٤) الردء : المعين والناصر ، والقوة والعماد .

(٥) كل فريق يساند الفريق الآخر .

قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر[1]، ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان للأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وإن هذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاور[2] الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعونى أتأمر اليوم فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم[3] وأن الأمر لا يطول[4].

فأين في كلام خالد ما يدل على أن أبا بكر هوالذي وحد القيادة والإمارة إن جميع كلمات خالد تدل على غير ذلك فهو الذي يرى أن الاتفاق يسر أميرهم وكل من يحبهم لأنه يحول دون فرقتهم، وخالد يقول لهم فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه رأى من واليكم فهم ليس لديهم أمر في هذا الشأن وعليهم أن يتشاوروا فيه بما يرون أنه الحق . والأمراء يقولون له هات فما الرأى ؟ مما يدل على أنه لم يكن لديهم شيء من الخليفة ولو كان لديهم لوجب عليهم أن يعملوا به ، ثم هو يقول لهم : إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدل على أن الأمر لا يزال موضع تشاور وتداول ثم يقترح عليهم خالد في النهاية أن يكون كل منهم أميرا يوما وأن يكون هو أمير اليوم الأول فوافقوه على ذلك .

فالتوحيد إذا تم بمشورة الأمراء واقتراح خالد لا برأى أبي بكر ولا توجيهه ولا أدرى من أين جاء طه حسين بهذا الترجيح الغريب المخالف لوقائع الأمور ووثائقها .

وقد تجلت عبقرية خالد وعظيم مشورته فقد خرج في تعبئة لم يعرفها العرب قبل ذلك وقسم الجيش إلى ستة وثلاثين كردوسا[5]. وجعل في كراديس القلب أبا عبيدة بن الجراح ، وعلى كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وعلي كراديس الميسرة يزيد بن أبي

---

(١) ستياسر : سنتساهل ونتلاين = نتفق في سهولة ويسر .
(٢) نتعاور : نتبادل ونتداول .
(٣) الشركة بينهم .
(٤) الكامل حـ ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، والبداية والنهاية حـ ٧ ص ٧ .
(٥) الكردوس : القطعة العظيمة من الخيل ويبدو أن كل كردوس كان حوالي ألف .

سفيان ، وعلى كردوس من كراديس العراق القعقاع بن عمرو ، وكان القاضى ابو الدرداء ، وكان القاص[1] أبو سفيان بن حرب ، وعلى الطلائع قباث بن أشيم وعلى الأقباض[2] عبد الله بن مسعود[3]. والقارىء للقرآن المقداد بن الأسود .

هؤلاء هم أمراء جيوش الشام الذين وحدوا القيادة لخالد بن الوليد بمشورتهم لا بأمر من أبي بكر : فمن أين لطه حسين ما قال ورجح ؟

هناك إشارة في ابن كثير تقول : كتب الصديق إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق وأن يقفل بمن معه إلى الشام فإذا وصل إليهم فهو الأمير عليهم »[4] ولكن هذه الرواية ليست نصا كتلك التي أشرنا إليها فيما مضى عند ابن جرير وتلك التي قدمناها لابن الأثير فلا تقوى ان تكون دليلاً على ما رجحه طه حسين وقد رجح الدكتور هيكل ما رجحناه لا ما رجحه طه حسين[5].

(١٥) أعظم تجديد

ينفى طه حسين عن أبى بكر الصديق أي تجديد في السياسة الداخلية وأنه قد لخص سياسته في الاتباع وليس الابتداع فيقول : « ولم يكن لأبى بكر تجديد في سياسته الداخلية إن صح أن نسمى سيرته في المدينة وفي العرب بعد أن عادوا إلى الإسلام سياسة داخلية » ويعتمد في هذا النفى على كلمة لأبى بكر قالها في أول خطبة خطبها بعد أن استخلف وهي قوله « إنما أنا متبع ولست بمبتدع »[6] ولسنا نوافق طه حسين في هذا النفى المطلق لما قام به أبو بكر الصديق في مجال السياسة الداخلية .

وهل هناك أقوى وأعظم في السياسة الداخلية من تحقيق الوحدة الوطنية إن صح هذا التعبير ـ ألم يرتد كما قال طه حسين معظم جزيرة العرب عن الإسلام فإعادهم الله تعالى إليه

---

(١) الذي يعظ الناس ويحرضهم على القتال .
(٢) ما يحتاج إلى حفظ كالأموال ونحوها .
(٣) ابن الأثير حـ ٢ ص ٢٨٢ .
(٤) البداية والنهاية حـ ٧ ص ٦ .
(٥) الصديق أبو بكر ص ١٢٢ .
(٦) الشيخان ص ٩ .

على يد أبي بكر ؟ ألم يكن من الممكن لو تساهل أبو بكر في هذا الأمر ألا تقوم لدولة الإسلام قائمة ؟

ثم ألم تعد هذه الوحدة على الأمة بالخير والرخاء والأمن والاستقرار وحقن الدماء ؟

ثم ألم تكن هذه الوحدة سببا في الحفاظ على أعظم كتاب وأفضل تنزيل وهو القرآن الكريم الذي تم جمعه وحفظه في الصحف مع الحفظ في الصدور ؟

ثم ألم يكن استقرار الجبهة الداخلية على يد أبي بكر الأساس القوى والمنطلق العظيم لفتوحات العراق والشام وما تحقق فيهما من الخير ؟

هل حدث شيء من ذلك أيام الرسول صلى الله عليه وسلم فكان أبو بكر فيه متبعا أم كان ذلك توفيق الله تعالى وعونه له ؟

هل يستطيع أحد غير أبي بكر أن يحقق ما حققه أبو بكر من الانجازات العظيمة في تلك المدة القصيرة ؟

هل يحق لنا بعد ذلك أن نقول ما قال طه حسين « لم يكن لأبي بكر تجديد في السياسة الداخلية » ؟

يقول هيكل : قضى أبو بكر على ردة العرب وعلى الثورة التي اندلعت إثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب هذه الردة فأشعلت شبه الجزيرة نارا ، ثم إنه فتح العراق واوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس ، كما تقدم في فتح الشام وساير النصر أعلامه فيها إلى دمشق ، وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبو بكر يقيم الحكم في البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى وإذا هو يجمع كتاب الله فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجرا في جمعه بين اللوحين ، هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرت الدين الحنيف في منزل الوحي ومهدت لإقامة الامبراطورية الإسلامية لانتشار هذا الدين الحنيف فيها ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل وكان ذلك كله في سنتين وثلاثة أشهر .

أليست هذه بعض معجزات التاريخ ؟ في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمم ثائرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب حتى لتغزو الامبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجهان حضارته لتنهض بعبء الحضارة في العالم قرونا بعد ذلك . هذا أمر لم يسجل

التاريخ مثله . . . ولا يمكن أن ينهض به رجل إلا اذا أوتى من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتاه إلا الصديقون »[1].

أليس في نفى طه حسين التجديد في سياسة أبى بكر الداخلية ظلم ومبالغة ؟ وعمل واحد مما قام به أبو بكر كاف في إثبات ذلك .

(١٦) في جمـع القـرآن الكـريـم

يشكك طه حسين في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق على الرغم من اعترافه باتفاق المحدثين والعلماء بالقرآن على إضافته ـ الجمع ـ إلى أبى بكر عن مشورة عمر فيقول « نهض زيد بهذه التبعة . . حتى أتم ذلك في عهد أبى بكر أو في أيام عمر على اختلاف في ذلك ، فاجتمع بذلك أول مصحف كتب فيه القرآن وظل هذا المصحف عند أبى بكر إن كان قد تم جمعه في أيامه ثم صار بعد ذلك إلى عمر ، أو ظل عند عمر إن كان قد تم جمعه بعد وفاة أبى بكر حتى قتل عمر فكان عند حفصة »[2]. ثم يقول « ومعنى هذا أن المصحف الذي جمعه زيد بن ثابت عن أمر أبى بكر لم يكن معروضا على الناس وإنما كان محفوظا عند الشيخين أو عند عمر وحده ثم عند حفصة »[3].

وهذا التشكيك لا مبرر له فقد اتفق المحدثون والمفسرون على أن أبا بكر هو الذي أمر بجمع القرآن بمشورة عمر ، وأن زيد بن ثابت تولى هذه المهمة وانتهى منها في عهد أبى بكر فكان القرآن عند أبى بكر حياته ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة إلى أن طلبه عثمان رضى الله عنهم أجمعين وإليك توثيق ذلك :

قال ابن الاثير : وفي هذه السنة ١١ هـ بعد وقعة اليمامة أمر أبو بكر بجمع القرآن لما رأى من كثرة من قتل من الصحابة لئلا يذهب القرآن[4] . . وقال : أرسل عثمان إلى حفصة بنت

---

(١) الصديق أبو بكر ص ١٥٢ .
(٢) الشيخان ص ١٠٢ .
(٣) الشيخان ص ١٠٣ .
(٤) الكامل حـ ٢ ص ٢٤٧ .

عمر أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر فإن القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر إن القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر فلما توفى عمر أخذتها حفصة فكانت عندها فأرسل عثمان إليها وأخذها منها »[1].

قال السيوطي روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال أرسل إلى أبو بكر مقتل[2] أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر[3] يوم اليمامة بقراء القرآن[4] وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم[5] فتتبع القرآن اجمعه ، فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي حزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » حتى آخر براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر » وأخرج ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن عن عبد خير قال :

---

(١) الكامل حـ ٣ ص ٥٦ .

(٢) حين قتل أهل اليمامة أي في حروب الردة .

(٣) كثر .

(٤) وكان قد استشهد فيها اكثر من سبعمائة صحابي منهم حوالي سبعون من كبار حفاظ القرن وقرائه .

(٥) كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حوالى أربعون كاتبا وزيد بن ثابت من أشهرهم .

سمعت عليا يقول : أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله »[1] ثم أخذ السيوطي يضعف ما سوى ذلك من الروايات .

فهل يحق لطه حسين بعد هذا الاتفاق بين العلماء والباحثين في الماضي والحاضر أن يشكك في نسبة جمع القرآن لأبي بكر ويتردد في ذلك بينه وبين عمر ؟ وليته قدم لنا السبب الذي دفعه إلى ذلك إذا لناقشناه ووقفنا على دليله أما أن يكون التشكيك بلا دليل وعلى غير أساس فهذا ما لا يوافقه عليه أحد .

(١٧) إســـلام عمــر

لا يثق طه حسين بما يرويه الرواة في مناسبة إسلام عمر بن الخطاب دون أن يقدم الدليل على ضعف ثقته بهذه الروايات ولا ما يثق هو به فيقول بعد أن يروى هذه الرواية وبعد أن يكرر بين فقراتها اكثر من مرة قال الرواة يقول : « وأنا أروى هذه الرواية غير واثق بها كل الثقة وإنما أراها مصورة لما كان القدماء وأصحاب النبى خاصة يعرفون من أخلاق عمر قبل إسلامه ، والشيء الذي ليس فيه شك أن عمر كان شديد العنف بالمسلمين »[2] .

ولا أدرى لماذا لا يثق بهذه الروايات وهي ثابتة في كل المصادر الموثوق بها والمعتمد عليها[3] ويميل إلى اجتهادات ضعيفة أو مريضة لا دليل عليها كقوله : لعله أن يكون قد سمع آيات .... وجائز جدا ... » .

(١٨) تصحـــيح

ويقول طه حسين إن عمر بن الخطاب فى غزوة بنى المصطلق سمع أن عبد الله بن أبي بن سلول قال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، يقصد اخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فثار عمر لذلك وطلب من النبى أن يأذن له في قتله ، ولكن النبى صلى

---

(١) الاتقان حـ ١ ص ٥٨/٥٧ وانظر أيضا : مناهل العرفان حـ ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ . تفسير الطبري حـ ١ ص ٢٦ .

(٢) الشيخان ص ١١٦ .

(٣) انظر : تهذيب سيرة ابن هشام ص ٧٩ ـ ٨١ والبداية والنهاية حـ ٣ ص ٧٧ ـ ٨٢ ، الكامل حـ ٢ ص ٥٧ ـ ٥٩ ، حلية الأولياء حـ ١ ص ٤٠ ـ ٤١ وعمر بن الخطاب / الابراشى ص ١٣/٩ .

الله عليه وسلم رده إلى الرفق يقول[1] : « لم يكد عبد الله بن أبي بن سلول يقول كلمته تلك التي قالها في غزوة بنى المصطلق « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ولم تكد هذه الكلمة تبلغ النبى ، وعمر عنده حتى ثار عمر وسأل النبى أن يأذن له في قتل هذا المنافق ولكن النبى رده إلى الرفق وقال له : لا تتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه » والذي قرأناه في أكثر من مصدر أن عمر لم يسأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يقوم بهذه المهمة وإنما اقترح عليه الفكرة فقط ففي ابن هشام « فقال عمر : مرْ به عباد بن بشر فليقتله »[2] وكذلك في غيره فلا أدرى من أين جاء طه حسين بهذا الذي قاله من أن عمر هو الذي طلب قتل عبد الله بن أبي بن سلول ؟

(١٩) إنكار بلا دليل

وينكر طه حسين استسقاء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ويرى أن ذلك من الرواة تكلف وتملق لآل العباس يقول : « ويزعم الرواة أنه حين استسقى أخذ بيد العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وتوسل به إلى الله وأنه لم يتم استسقاءه حسى أرسل الله الغيث ، وواضح أن هذا تكلف مصدره التملق لبنى العباس أثناء حكمهم »[3] .

وهذا الذي ينكره طه حسين ثابت بالروايات الصحيحة ومتفق عليه فعن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون » رواه البخارى قال الشوكاني : وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك فأخرج بإسناده أن « العباس لما استسقى به عمر قال : اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بي القوم إليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب وتواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث » وأخرج أيضا من طريق داود بن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال : استسقى عمر بن الخطاب

---

(١) الشيخصان ص ١٢٨ .
(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٣٨ والكامل جـ ٢ ص ١٣١ ، والبداية والنهاية جـ ٤ ص ١٥٧ .
(٣) الشيخان ص ١٣٩ .

عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب وذكر الحديث وفيه « فخطب الناس عمر فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله » وفيه : فما برحوا حتى أسقاهم الله . . .

وقال الشوكاني : ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة ، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه ، وقد نقل الشوكاني ذلك عن ابن حجر في كتابه « فتح الباري شرح صحيح البخاري » ثم قال : وظاهر قوله كان إذا قحطوا استسقى بالعباس انه فعل ذلك مرارا كثيرة »[1] .

نحن إذا أمام أمر ثابت وواقعة مؤكدة فلم التشكيك والإنكار ؟ ولم الادعاء واتهام الرواة بالزعم ونحو ذلك . خصوصا وأنه لم يقدم الدليل على النفى ويذهب طه حسين أبعد من ذلك حين لا يكتفى بالتشكيك في استسقاء عمر بالعباس بل يقول : انها كذبة يقول : « ولكني أقطع بأن قصة التوسل بالعباس بن عبد المطلب كذبة تقرب بها الرواة إلى بنى العباس وما كان عمر ليستشفع بأحد »[2] .

(٢٠) اجتـــهاد لا ابتـــكار

ويرى طه حسين أن عمر بن الخطاب كان يرعى شئون الرعية في دينها ودنياها وقد حمله ذلك إلى ابتكار أمور لم يكن للمسلمين بها عهد أيام النبى ولا أيام أبي بكر ، واستشهد لذلك بصلاة التراويح وحد شارب الخمر يقول : « فهو الذي أخذ الناس بقيام رمضان بعد أن تصلى العشاء فسن لهم صلاة التراويح ، ولم يقصر هذا على الرجال وحدهم إنما سنه للنساء أيضا ، وجعل للرجال قارئا يصلى بهم صلاة التراويح هذه وجعل للنساء قارئا يصلى بهن هذه الصلاة وكتب بذلك إلى الآفاق لتكون هذه الصلاة عامة بين المسلمين ، واشتد في عقاب الذين يشربون الخمر ففرض لشرب الخمر حدا لم يكن معروفا قبله ، والله حرم الخمر في القرآن الكريم ولكنه لم يفرض على شاربها عقابا في الدنيا ، وإنما ترك ذلك لما ادخر للمخالفين

---

(١) نيل الأوطار حـ ٤ ص ٣٢ ، فتح البارى شرح صحيح البخاري حـ ٢ ص ٤٩٤ ـ ٤٩٧ وسبل السلام حـ ٢ ص ٦٦ ، البداية والنهاية حـ ٧ ص ٩٢ ، والكامل حـ ٢ ص ٣٩٠ .

(٢) الشيخان ص ١٩٩ .

عن أمره ونهيه من العقاب يوم القيامة »[1] وفي هذا الكلام مبالغة ومغالطة فصلاة التراويح من سنن النبى صلى الله عليه وسلم لا من سنن عمر وما كان لعمر ولا غيره أن يسن شيئا في العبادات فعن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة فيقول « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه الجماعة ، وعن عبد الرحمن بن عوف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل فرض صيام رمضان وسننت قيامه فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه احمد والنسائى وابن ماجه . وكل ما في الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشرع فيها الجماعة تخفيفا على الناس ورحمة بهم ومن هنا اختلف العلماء في الأفضل فيها هل تصلي في المسجد في جماعة أو تصلى في البيت انفرادا ، فلما جاء عمر ورأى الناس قدتها ونوافيها شرع أداءها في جماعة في المسجد فعن عبد الرحمن بن عبد القارىء قال : خرجت مع عمر بن الخطاب في رمضان إلى المسجد فإذاالناس أوزاع متفرقون يصلى الرجل لنفسه ويصلى الرجل فيصلى بصلاته الرهط[2] فقال عمر إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبى بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم فقال عمر : نعمت البدعة هذه والتى ينامون عنها أفضل من التي يقومون يعنى آخر الليل وكان الناس يقومون أوله » رواه البخاري[3] فعمر إذا لم يسن صلاة التراويح فهي من سنن النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه سن صلاتها في جماعة .

وأما حد شرب الخمر فهو ثابت بالسنة والاجماع وليس ابتكارا من عمر ولا شيئا لم يكن معروفا فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين ، قال وفعله أبو بكر فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن بن عوف أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر » متفق عليه ، فالحد إذا كان معروفا قبل عمر وأن النبى صلى الله عليه وسلم حد شارب الخمر أربعين وسار على ذلك أبو بكر ثم رأى عمر أن الناس تساهلوا وتكاثروا في شرب الخمر فاستشار الصحابة فأشاروا عليه بزيادة الحد إلى ثمانين وقال على

---

(١) الشيخان ص ٢٠٢ ، ٢٠٧ .

(٢) الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

(٣) نيل الأوطار جـ ٣ ص ٥٩ ـ ٧٤ وعون البارى لحل أدلة صحيح البخاري جـ ٣ ص ٤٧٩ .

في ذلك إن الشارب اذا سكر هذى وإذا هذى افترى وحد الافتراء ثمانون فزيادة الحد اذا كانت بإجماع الصحابة ومشورتهم وليست ابتكارا من عمر فعن مسلم عن علي في قصة الوليد بن عقبة أن عثمان أمر عليا بجلد الوليد بن عقبة في الخمر فقال لعبد الله بن جعفر اجلده فجلده فلما بلغ أربعين قال أمسك : جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين وجلد أبو بكر أربعين وجلد عمر ثمانين وكل سنة وهذا أحب إلي »[1] .

ومن هذا يتبين إن طه حسين كان مبالغا حين ذكر أن عمر قد ابتكر أشياء لم يكن للمسلمين بها عهد أيام النبى ولا أيام أبي بكر ، قد يكون ذلك صحيحا في أمور اخرى ، اما التراويح وحد شرب الخمر الذين استشهد بهما فليسا كذلك وقد عاد هو نفسه فاعترف بذلك[2] .

(٢١) تثبــت لا نهــى

ويذكر طه حسين أن عمر بن الخطاب كان يكره الإكثار من الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يقبل الحديث إلا بشاهد وإلا ضرب الراوى وكان ينذر المحدثين بالعقوبة وقد أنذر أبا هريرة بالنفى فلما أنذره توقف عن الرواية حتى مات عمر يقول : « وربما جاءه الرجل بالحديث فأمره أن يأتي برجل آخر أو يوجعه ضربا ، وكان يكره أن يكثر الناس الحديث عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينذر المكثرين بالعقوبة وقد أنذر أبا هريرة بالضرب والنفى إلى بلاده التي جاء منها لأنه كان يكثر الحديث فلما نهاه عمر كف عن رواية الحديث ولم يعد إليها إلا بعد وفاة عمر »[3] .

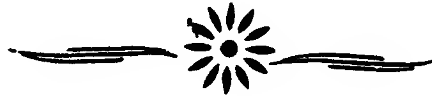
ومعنى هذا ان ابا هريرة توقف عن رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعد إليها إلا بعد وفاة عمر . وليس الأمر كذلك فماكان هدف عمر منع الناس من رواية أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كان هدفه الدقة والتحرى لذلك كان يطلب شاهدا آخر ، ولماعلم ان ابا هريرة من المكثرين أبكر عليه ذلك وحدثه في الأمر وهدده فلما طمأنه أبو هريرة على الدقة والأمانة أذن له في الرواية . ولم يتوقف كما قال إلى أن توفى عمر ، وفي ذلك يقول صبحى الصالح : ويبدو أن عمر على عادته في التشدد في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سبل السلام حـ ٤ ص ٢٣/٢٤ وانظر : عون البارى لحل أدلة صحيح البخاري حـ ٦ ص ٣٣٥ .
(٢) الشيخان ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .
(٣) الشيخان ص ٢١٣ .

أنكر على أبي هريرة كثرة رواياته وقال له : « لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض دوس حتى إذا روى له أبو هريرة قوله عليه السلام « من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » أقره على رواية الحديث وقال : أما الآن فاذهب فحدث »[1] .

اذا لم يتوقف أبو هريرة عن الرواية في عهد عمر كما قال طه حسين .

هذا وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه اجمعين .



(١) علوم الحديث ومصطلحه ص ٣٦٠ .

أهـــم المـــراجــــع :

١ ـ الإتقان في علوم القرآن — السيوطي
٢ ـ البداية والنهاية — ابن كثير
٣ ـ تاريخ الأمم والملوك — الطبري
٤ ـ تفسير الطبري — الطبري
٥ ـ تهذيب سيرة ابن هشام — تحقيق عبد السلام هارون
٦ ـ حلية الأولياء — أبو نعيم
٧ ـ سبل السلام — الصنعاني
٨ ـ ابن سلام وطبقات الشعراء — د / منير سلطان
٩ ـ الشيخان — طه حسين
١٠ ـ الصديق أبو بكر — هيكل ـ اختصار فرج ندا
١١ ـ علوم الحديث ومصطلحه — صبحى الصالح
١٢ ـ عمر بن الخطاب — محمد عطية الابراشي
١٣ ـ عون البارى لحل أدلة صحيح البخاري — صديق خان
١٤ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري — ابن حجر
١٥ ـ الكامل في التاريخ — ابن الأثير
١٦ ـ مختصر تفسير ابن كثير — الصابوني
١٧ ـ المعجم الوسيط — مجمع اللغة العربية
١٨ ـ مناهل العرفان — الزرقاني
١٩ ـ نيل الأوطار — الشوكاني

الفهرســـت